الخيل والابل في الشعر الجاهلي

من جملة الأسباب التي أعانت الإنسان على التقدم في ميدان التفكير والحضارة تقدماً سريعاً أنه استطاع أن يتفهم نفس الحيوان ، ويتعاون معه في ميدان العمل والرياضة واللهو . ولقد عرف تاريخ البشرية كثيراً من النفوس الكريمة عاشت متعلقة بالحيوان أشدّ التعلق كما عرف تاريخ الآداب العالمية عدداً حافلاً من غرر النظم والنثر في وصف الحيوانات المختلفة ومتعها الهنيّة [1] .

والأدب العربي — ولا سيما الجاهليّ منه - زاخر بوصف الحيوان الأليف وسباع البرّ . والقصائد العربية المخصوصة بالحيوانات تعدّ من أجمل الشعر وأظهره جدّة وطرافة وحياة . ولعلّ ما يميز الأدب العربي — ولا سيما جاهليّه — من سائر الآداب العالمية الأخرى أنه عُني بوصف الخيل والإبل عناية عجيبة ، وجعل الحديث عنهـا ملء القصائد والأسماع والأحاديث . ويذهب الأستاذ المستشرق آ . ج . آربري [2] إلى أنْ ليس في آداب العالم أدب وصف الخيل والإبل ومدحها مثل ما وصف أدبُ الجاهلية ومدح . وليس شيء أدل على صحة هذا القول من أن ينظر المرء في الشعر الجاهلي : في المعلقات والمفضليات والأصمعيات والحماسة وما استُدرك في كتاب (الاختيارين) [3] وغيرهـا من الكتب التي حفظت في بطونها تحف الجاهلية ليراها حافلة بوصف المطايا وامتداح الجياد الكريمة والنجائب . بل كان وصف المطية ركناً ركيناً في بنيان القصيدة

---

(١) نشرت مكتبة D. G. Barnes في لندن مجموعة شعرية عنوانها (Lords of Life) تحوي غرر القصائد المقولة في وصف الخيل في الحسين عاماً الأخيرة . (٢) أستاذ الأدب العربي والأدب الفارسي في معهد الدراسات الشرقية والافريقية بلندن . (٣) طبع السيد معظم حسين نخبة من هذا الكتاب مشروحة وترجمها الى الانكليزية ونشرها في دهلي عام ١٣٥٦ـ١٩٣٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجاهلية . ولعل سير الخيل والإبل هو الذي أوحى الى العرب بأوزان الشعر وكان — بانتظامه ورشاقته — (ضابط الإيقاع) لأغانيهم وأشعارهم ، ولعل « كثرة الشعر الجاهلي — كما يرى سيد نوفل [١] — قد قيلت على ظهور الإبل والخيل وسط الطبيعة » .

ولم يُضعف الإسلام هذا الميل الجاهلي بل رعاه وزاد في إعزاز الخيل وأمر باتخاذها وإكرامها [٢] . والأحاديث المروية عن الرسول الكريم (ﷺ) في خلق الخيل [٣] والأساطير التي نجمت عنها [٤] تدل على شغف العرب بالخيل وحرصهم على أن يجعلوها عربية المنشأ والموطن والجنس والدم .

ولم يفتر الشعراء والكتاب في العصر الأموي والعصر العباسي والعصور التوالي عن وصف الخيل والإبل . وقصائد البحتري العديدة في وصف الأفراس هي من الحسن والدقة والرواء بحيث تستحق دراسة خاصة .

---

(١) راجع : شعر الطبيعة في الأدب العربي لسيد نوفل . مصر ١٩٦٥ . (٢) جاء في حياة الحيوان للدميري (ج ١ ص ٣٥١) أن الرسول (ص) قال : إن المنفق على الخيل كباسط يده بالصدقة لا يقبضها . (٣) جاء في حياة الحيوان للدميري (ج ١ ص ٣٥٠) أن النبي (ص) قال : لما أراد الله أن يخلق الخيل أوحى الى ريح الجنوب إني خالق منك خلقاً فاجتمعي . فاجتمعت فأتى جبريل عليه السلام فقبض منها قبضة ثم قال الله عز وجل له : هذه قبضتي . ثم خلق منها فرساً كميتاً وقال عز وجل : خلقتك فرساً وجعلتك عربياً وفضلتك على سائر ماخلقت من البهائم بسعة الرزق ، والغنائم تقاد على ظهرك ، والخير معقود بناصيتك . (٤) روى الدميري (ج ١ ص ٣٥٤) عن ابن عباس أنه قال : لما أذن الله لابراهيم وإسماعيل برفع القواعد قال الله تبارك وتعالى : إني معطيكما كنزاً ادخرته لكما . ثم أوحى الله الى اسماعيل أن اخرج الى أجياد فادعُ يأتك الكنز . فخرج الى أجياد ولا يدري ما الدعاء ولا الكنز فألهمه الله تعالى الدعاء فلم يبق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا جاءته وأمكنته من ناصيتها ، وذللها الله تعالى له . قال الدميري : ولو ذكرنا ما قال الناس في ذلك وشرحناه بطوله لطال . فقد تكلم الناس في ذلك كثيراً وذكروا من خواص الخيل ومناضها شيئاً كثيراً ليس ذلك كله مما نلتزم صحته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونحن في هذا المقال إنما نحاول أن نمتحن (أولاً) العاطفة التي ألّفت بين نلب العربي والحيوان ونوازن بينها وبين عواطف الأمم الأخرى التي أحبت الحيوان وأكرمته ووصفته ، لنميز المتشابه من عناصرها (أي العام الذي تشترك فيه كل النفوس البشرية) من الأصيل المميز لروح العرب ، الخاص بهم ، ونشير (ثانياً) الى الأسباب التي نظنها قد جعلت الأدب العربي يبذّ كل الآداب الخصيبة الأخرى في اللهج بالخيل والإبل ووصفها وإطراء محاسنها .

لا ريب في أن منافع الحيوانات من أهم ما جعل العربيّ يُعنى بها ويصرف اليها أكثر همه . وقد جاء في القرآن الكريم « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب ، أفلا يشكرون ؟ » وقالت العرب : إن الله لم يخلق نعماً خيراً من الإبل ، إن حملت أثقلت ، وإن سارت أبعدت ، وإن حُلبت أروت ، وإن نُحرت أشبعت [1] . والخيل كذلك كانوا يشربون ألبانها ويأكلون لحومها ؛ غير أنها كانت تُعدّ — اكثر ما تعدّ — للحروب والغزو والكرّ والفرّ وإرهاب العدوّ والقنص واللهو ، وبخاصة للعَدْو السريع الذي يقرّب بين المسافات الشاسعة القاحلة الظامئة التي كانت تفصل مضارب القبائل بعضها عن بعض ، ويجعل مواقع الغيث ومنابت الكلأ في متناول العربيّ حيث كان . وهذا ما حمل الشاعرَ الجاهليّ على أن يفخر — بوجه خاص — برشاقة جواده وضمور بطنه وقوته وسرعة عَدْوه فيشبهه بالطائر يطير بلا جناح ، وبالكوكب المنقض وبقيد الأوابد . قال امرؤ القيس :

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وقال الأخنس التغلبي يصف فرسه [2] :

(١) نهاية الأرب للنويري ج ١٠ ص ١١٥

(٢) نخبة من كتاب الاختيارين ص ٥٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تباعدني إذا ما شئتُ عنهم وتدنيني إذا كرهوا اقترابي
وتصدرني كما قد أوردتني كأني بين خافيتي عُقاب

واقتناء الحيوانات لمنفعتها امر شائع بين الأمم وما تزال أشدّ الأمم حضارة تعنى بالخيول والهررة والكلاب وبعض الأسماك والطيور وبعض الحيوانات الأخرى لما تجنيه منها من نفع وفائدة .

غير أن هذه الأمم المتحضرة قد تعنى بالحيوانات وهي مسوقة برغبة أخرى غير اجتناء المنفعة ، رغبة اللهو والزينة والترف . وقد عرف العرب هذه العاطفة وزادوا تعلقاً بالحيوان . وقد ذكر ذلك القرآن الكريم في مواضع عدة . قال تعالى : والأنعامَ خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافعُ ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تُريحون وحين تسرحون . وأشار امرؤ القيس الى ذلك فقال :

كأني لم أركب جواداً للذّةٍ ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال

والولع بالحيوان من حيث هو متعة وزينة وسبيل للهو غير الولع به ولعاً (مجارياً) . لأن هذا الضرب الأخير لا يصدر عن الصدق والحاجة وهوى النفس بل هو شغف منحرف تسميه اللغات الأوربية (Snobisme) وهو أن تمنح ودّك من لا تريد لأنك لم تجد من تريد ، وتهوى الشيء وهواك غيره . وإنما يفعل اكثر الناس ذلك ليُروا أنهم ليسوا من المقصرين المتخلفين في هذه الحياة ، وأنهم كأمثالهم في العاطفة والسلوك . فالبنت الصغيرة تمنح ودّها الشديد لقطتها أو كلبها أو لعبتها لأنها لم تجد في أهلها (المنهمكين في شؤونهم) من يبذل لها كل الودّ الذي تريد . وحبها هذا — على قوته — مموّه مزيف . والقطة والكلب واللعبة ليست في واقع الأمر ، الشيء الذي تهوى ، وانما هي عوض وبدل من الشيء الذي تهوى . هذه العاطفة المموّهة ، هذا الولع (المجاري) من أقوى العناصر المقوّمة لولع الانسان بالحيوان لدى أكثر الأمم في العصر الحاضر . فتمت كل نجم نجد من يبذل عاطفته للحيوان لأن أمراً ما حال بينه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبين أن يبذلها للانسان . وشغف الصغار بالحيوانات معروف ، وحب النساء العُقم أو المترمّلات للقطط أو الكلاب أو الطيور أو الجياد مشهور : يخصصنها بالاعتناء ، ويحدبن عليها حدب المرضعات على الفطيم . وعناية الرعاة (المتفرّدين) وأهل البرّ (المتعزلين) بحيواناتهم شديدة الظهور تسترعي الأنظار . وتعلق الجنود (البعيدين عن منازلهم) بخيولهم ، ومنحهم اياها الودّ الشديد والعاطفة المشبوبة وحزنهم عليها وغمهم إما جُرحت أو قُتلت يكاد يكون مضرب الأمثال[1] .

والولع المجاري أو (السنوبزم) من جملة البواعث التي زادت — على ما يبدو — تعلّق بعض عرب الجاهلية بإبلهم وخيولهم ، ودعتهم الى أن يحرفوا اليها ما تدفق من عواطفهم الجياشة . فالقاريء للغزل الجاهلي يجد أنّ العاشق المشبوب العاطفة ، الخافق القلب لذكر الحبيب كان يجد في النزهة في الفلاة على ظهر فرسه أو ناقته مفرجًا لضيق صدره ، ومسلاة لأحزانه ، وإمضاء لهمومه . قال طرفة :

وإني لأُمضي الهمّ عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

وقال علقمة الفحل :

فإنك لم تقطع لبانة عاشق بمثل بكور أو رواح مؤوّب

وامرؤ القيس الذي اشتهر بوصف الخيل والإبل كان يشكو تنكر الصحاب ويتهمهم بالتغير والخيانة :

اذا قلت هذا صاحب قد رضيته وقرّت به العينان بدّلت آخرا

كذلك دأبي : ما أُصاحب واحداً من الناس الاّ خانني وتغيرا

وقد يفسر هذا الباعث النفسي طريقة بعض الشعراء الجاهليين في نعت الخيل والإبل بصفات المرأة أو الصديق كقول امريء القيس :

لها ذنب مثل ذيل العروس تسدّ به فرجها من دُبُر

(١) جعل أحد الكتاب الأمريكان تعلق الجنود بجيادهم حتى أنهم لا تطيب لهم الحياة إذا ماتت موضوعاً لرواية أخرجتها دور السينما وعُرضت في سورية في العام الماضي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقول عمارة بن صفوان في وصف مطيته :

مشت مشية الخرقاء مال خمارها وشمر عنها ذيل بُرد ومنطق
تُقلّب للأصوات أُذناً سميعة وتسمو بعيني فارك لم تُطلّق

وقول امرئ القيس :

وخرق كجوف العير قفر مضلة قطعت بسامٍ ساهم الوجه حسّان
يُدافع أعطاف المطايا بركنه كما مال غصن ناعم بين أغصان

وقول عنترة :

فازورّ من وقع القنا بلبانه وشكا اليّ بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان ، لو علم الكلام ، مكلمي (١)

ويرى الأستاذ (آربري) أن شعراء الجاهلية كانوا في الغالب ينعتون الخيل بصفات الصاحب والصديق المحارب ويخصون الإبل بصفات النساء .

إن قراءة الشعر الجاهلي لتدلّ لا شك على أن (الولع المجاري) كان — في الجاهلية — من جملة البواعث لعطف العربي على الحيوان وتغنيه بوصفه . لكن هذا العطف الجاهلي هو من القوة والعمق بحيث يستبين للقارئ — في الوقت نفسه — أن هذا الباعث وحده عاجز عن خلق هذا العطف المتقد المتصل بل ان (المنفعة) و (اللهو) و (الزينة) و (الولع المجاري) جميعاً لا تكفي لتعليل شدة اتصال العربي بخيله وإبله ، وحبه لها ، وتلذذه بتصويرها . إن العاطفة القوية التي تستعد في القصائد المقولة في الخيل والإبل إنما تصدر — فيما نظن — عن باعث آخر غير كل ما ذكرناه ، باعثٍ أصيلٍ في نفس العربي ، فطريّ في طبعه ، لا يشاركه فيه غيره من بني الناس ..

هذا السبب الأصيل الذي قد يكون أشدّ البواعث وأقواها أثراً في إذكاء

(١) وقال البحتري في العصر العباسي :

ملك العيون فإن بدا أعطينه نظر المحب الى الحبيب المقبل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هوى العربيّ لجواده ونافته شديد الاتصال بعصره : عصر الجاهلية ، شديد الاتصال ببيئته : صحراء الجزيرة .

كان العربيّ في الجاهلية وثنياً لا يؤمن بانفصال النفس عن الجسد ، ولا يقسم (وحدته) الى روح خالد وجسد فانٍ يزدريه الروح ويعاديه . كان لا يؤمن بالبعث ولا يتطلع الى ما وراء القبر ، معنياً بالزمان الحاضر يسعى فيه الى التلائم مع بيئته الطبيعية القاسية ومجتمعه البدوي البدائي . وكانت (مثالية) الحياة في عينيه إحسان هذه الملائمة ؛ وكان يراها لا تتم الاّ بنموّ كل قواه الجسدية والنفسية جميعاً دون أن يشطر (وحدته) شطرين ودون أن يفضّل ميلاً على ميل أو غريزة على غريزة . والوازع الأخلاقي الضابط لأعماله هو التكيّف بحسب مقتضيات المحيط والساعة الحاضرة لا الحساب والعقاب في اليوم الآخر . فهو شديد البطش جبار في الحروب لأن الحروب تتطلب ذلك . وهو ناعم رقيق القلب إذا رأى المحبوب لأن الهوى يدعو الى ذلك . هذه العقلية الوثنية الصحراوية التي تعيش في الحاضر ولا تفرّق بين الروح والجسم جعلته يُحسّ بالشبه بينه وبين بعض الحيوانات التي تحيط به ولا سيما الابل والخيل . فهي مثله تعيش في زمن الحال لا في زمن الاستقبال ، وحياتها متوقفة على ملاءمتها لشروط البيئة . بل إن نظره الدقيق كان يُريه أنها في كثير من الأحيان أصلح منه للحياة الطبيعية وأشدّ مقاومة وأهدى غريزة [1] : فلم يفطن قط الى أن الانسان سيد المخلوقات وأشرف الحيوانات ، وكانت نظرته الى الإبل والخيل نظرة الصاحب للصاحب والأليف للأليف لا نظرة السيد المترفع للعبد الحقير . كان يرى فيها بعض صفات الإنسان ويحبّ فيها هذه الصفات ويكرمها لأنها تملك هذه الصفات . بل كان يظن أنها نقلت إليه بعض طباعها وعاداتها .

(١) وفي طبع الابل الاهتداء بالنجم ومعرفة الطريق والغيرة والدولة والصبر على الحمل الثقيل وعلى العطش (نهاية الأرب ج ١٠ ص ١١١)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جاء في نهاية الأرب (ج ١٠ ص ١١٠): ليس في الحيوان من يحقد حقد الجمل. فقد قالوا ان العرب إنما اكتسبت الأحقاد لأكلها لحوم الجمال ومداومتها. وفي حياة الحيوان للدميري (ج ٢ ص ٢٠٧) أن الفرس أشبه الحيوان بالإنسان لما يوجد فيه من الكرم وشرف النفس وعلو الهمة. ومنها ما يعرف صاحبه ولا يمكّن غيره من الركوب عليه. وفي طبع الفرس الزهو والخيلاء والسرور بنفسه والمحبة لصاحبه؛ ومن أخلاقه الدالة على شرف نفسه وكرمه أنه لا يأكل بقية علف غيره.

ومن طبع العقلية الوثنية الصحراوية ألاّ تجعل قيمة الشيء في ذاته بل في نفعه وجدواه. فزيدٌ من الناس صديق البدوي ما دام ينفعه أو لا يعاديه أو لا يعادي قبيلته، وينقلب بسرعة إلى عدوٍّ مبين إذا ما نشبت الحرب بين القبيلتين. وأولاد البدويّ أحب خلق الله اليه ما دام قادراً على إعالتهم. فاذا خشي الفقر والجوع وعجز عن ملائمة البيئة الخارجية والساعة الحاضرة قتلهم وهو باك حزين. وفرس الجاهلي أو ناقته من أحب الأشياء اليه. وقد يؤثرهما على نفسه وولده لكن الجوع وقسوة الصحراء والكرم العربي الأصيل كل ذلك كان يدعوه إلى نحر فرسه أو عقر ناقته. فما أقسى حياته، وما أشدّ ضراوة قانون الصحراء: الصديق يذبح الصديق بيده ويطعم الجياع من لحمه.

ولو أن الله سبحانه وتعالى خلق العرب غلاظ الأكباد ضعفاء الحسّ لهانت عليهم هذه الحياة الوثنية الصحراوية. لكنه فطرهم على رقة الشعور ورهافة الحسّ وعمق العاطفة. ولا شك أن البدوي كان — حين ينحر مطيته — يؤمن بضرورة الأمر ويفعله راغباً؛ لكن هذا ما كان يمنعه قط من أن يتألم ويحزن ويُحسّ إحساساً باطنياً بقسوة الحياة. ومثل هذه العواطف الغامضة العنيفة المكبوتة كانت تجد متنفساً في حبّ الحيوان — ولا سيما الإبل والخيل — وفي الأنس بها والحديث عنها حديث الإلف والحبيب ووصف أعضائها وتصوير سيرها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونشاطها في الغور والنجد . كيف لا وهو يلمح من عواطفها وإحساساتها ما يقربها الى نفسه ويصل حياتها بحياته ويمزج شعور الإنسان بشعور الحيوان .

هذه العقلية الوثنية الصحراوية بعيدة عنا بحيث لا نستطيع تصورها ، متناقضة الوجوه بحيث نشك في أمرها ؛ لكنها على كل حال عقلية ساكن الصحراء في الجاهلية . وهي التي جعلت حبه للحيوان متميزاً من حب الأمم الأخرى له . فإن كانت الأمم الأخرى في الماضي والحاضر تحب الحيوان لتنتفع به أو لتلهو أو لتتخذه أداة للزينة والجمال أو وسيلة للتعبير عن عواطف مضغوطة سُدَّ مُتنفَّسُها الطبيعي لسبب من الأسباب فإن العربي الجاهلي كان يُحبّ حيوانه وبخاصة إبله وخيله لكل هذه العوامل (بنسب متفاوتة طبعاً) ولعوامل أُخرى لا تُرى إلا فيه ، ولا توجد إلاّ في عاطفته : ولّدتها حياته الوثنية وبيئته الصحراوية ونفسه الدقيقة الحسّ المتقدة الشعور . ولئن جعل الناس في العصر الحاضر يزدادون ولعاً بالحيوان كلما ازداد إقبالهم على سكنى المدن (1) واشتد بعدهم عن الطبيعة الحية فلقد أولع عرب الجاهلية به لأنهم عاشوا معه في قلب الطبيعة الحية : أنسوا به وأحبوه ورأوا في الخيل والإبل بعض صفاتهم فوصلوا حياتها بحياتهم وشعورها بشعورهم وحفظوا لها في شعرهم مكاناً أكرمْ به من مكان !

(لندن) خلدون الكناني

---

(1) يرى الأستاذ برتراند رسّل في كتابه الجديد (تاريخ فلسفة الغرب) أن الإنسان كان في البرية سلطان الحيوانات فلما سكن المدن صار « سلطان الآلات » والآلات جامدة صماء وهو جسم حيّ ، لذلك أحسّ العزلة والفراغ وحنّ الى الاتصال بالحيوان والطبيعة من جديد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net